مشاريع مونتفيوري ، اليهودي البريطاني ، في مفاوضاته الاولى مع ابراهيم باشا من اجل استيطان زراعي في فلسطين(٧) ثم في اتخاذها دور حامية اليهود في الامبراطورية العثمانية — وفي فلسطين بالذات — تماما كما تدعي فرنسا حماية الكنيسة الكاثوليكية وروسيا الكنيسة الارثوذكسية ، وكان ذلك الهدف الرئيسي وراء انشاء قنصليتها في القدس(٨). وفي تعليمات لورد بالمرستون الى الممثلين البريطانيين في الشرق ١٨٣٩ لتشجيع هذه الحماية وجهوده لاقناع السلطات العثمانية ان الاستيطان اليهودي في فلسطين انما هو لفائدتهم(٩) تصميم على ان يحول بين محمد علي وبين سيادته سورية ومصر معا ، اذ من موقع القوة هذا يمكنه التقدم نحو طرق داخلية من ممتلكات الدولة العثمانية الاسيوية . ومع تازم المسالة السورية ارسل بالمرستون تعليماته الى سفيره في الاستانة ١١ اغسطس ١٨٤٠ — يوم نزول القوات البريطانية بيروت — انه لو عاد اليهود (الى فلسطين) بموافقة السلطان سيكون ذلك كبحا لاي مشاريع خطرة في المستقبل من محمد علي او خلفائه(١٠). ولذلك ليس من الغريب بعد عودة فلسطين الى السلطان ان يشير قريب بالمرستون لورد شافتسبري في مذكرة سبتمبر ١٨٤٠ الى أن توطين اليهود بضمان من الدول الاربع هو جزء من تسوية القضية السورية يحمل السلم والازدهار لكل البلاد التي تقع بين الفرات والبحر المتوسط(١١). واجمعت مشاريع بريطانية اخرى على ان التوطين اليهودي ضروري من أجل تحكيم بريطانية في الشرق وكحل عملي للمسالة الشرقية(١٢)، اهمها ما اقترحه الكولونيل تشرتشل في الستينات بأن سورية (وفي ضمنها فلسطين) هي جغرافيا وتاريخيا ضرورة محتمة لمصر وكلاهما يجب ان يرتبطا ببريطانية(١٣).

ويلعب صندوق الاكتشاف الفلسطيني الذي انشىء عام ١٨٦٥ دورا كبيرا في تأكيد هذه الصلة العملية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر(١٤). ومع أنه انطلق من فكرة دينية بهدف دراسة كل ما يتعلق بالارض المقدسة ، الا ان حقول نشاطاته قد تعدت المسالة الدينية العلمية ، فاجتماعات جمعية الصندوق غالبا ما كانت تشير الى فكرة « عودة اليهود » ، كما أن اعماله قد شجعت بطريقة غير مباشرة عملية الاستيطان اليهودي بتقديم صورة مفصلة عن فلسطين ، ثم ان معظم الذين قاموا بالبعثات والاكتشافات وتولوا عمليات الحفر والمسح ووضع الخرائط كانوا من سلاح الهندسة الملكية .

بعد شق قناة سويس ١٨٦٩(١٥) ازدادت اهمية المنطقة التي تقع شرقي القناة، وشهدت السبعينات فترة نشطة من الاهتمام بفلسطين لما تولى دزرائيلي رئاسة الوزارة البريطانية . ورغم انه لم يحقق شيئا له علاقة بفلسطين حين قام بتسيير سياسة اوروبة حيال المسالة الشرقية في مؤتمر برلين(١٦)، الا أنه شجع ودعم جهود بريطاني آخر من الذين شاركوه عطفه على اليهود والدور الذي يمكن ان تلعبه بريطانية في سياسة الشرق عن طريقهم . كان لورنس اوليفنت (١٨٢٨ — ١٨٨٨) صحفيا وعضو برلمان قام برحلات الى الشرق بعد توقيع معاهدة برلين حين دخلت المسالة الشرقية مرحلة جديدة ، ورأى ان مشكلة الشرق ستتركز في المستقبل في تلك المنطقة التي تحرس طريق المتوسط نحو المحيط الهندي بسبب خطر تهديد روسيا بالتقدم نحو البحر الاحمر عن طريق العقبة مما يخول لها الاشراف السياسي على كل الشرق(١٧)، فوضع مشروعا يضمن حل المشكلة وينمي موارد الامبراطورية العثمانية بانشاء شركة لاستيطان المناطق الغنية وغير المأهولة في الدولة العثمانية،واوصلته استنتاجاته ونتائج تحرياته الى ان مكان الاستيطان هو الجانب الشرقي للاردن في النهاية العلوية للبحر الميت (أرض جلعاد) التي اثبتت تحريات صندوق الاكتشافات الفلسطيني انه يتمتع بامكانيات كبيرة وان الشعب الذي سيدعى لاستيطان هذا المكان هو الشعب اليهودي من اوروبا الشرقية(١٨). وفي دعوته التي بناها على عوامل دينية عاطفية تكمن امور سياسية واستراتيجية ، فقد دعم